الميكرو والأستاذ

قطع الأستاذ عبد القادر أربعة كيلومترات مشيا على الأقدام كعادته كل صباح من ضيعته إلى المفرق ووقف تحت مظلته . ينتظر الميكرو الذي سيقله إلى مفرق آخر يسير منه ثلاثة كيلومترات إلى الضيعة التي يدرس فيها

أخيرا ها هو الميكرو أطل بطلعته البهية, وطلعته بعد الانتظار الطويل تسر النفس وتبهج الخاطر أكثر من الربيع في أيام الربيع فكم بالحري في أيام الشتاء المتجهمة العبوس وخاصة إذا طال الانتظار تحت رحمة مطر يجلد بأربعين قسوط ؟ وريح تلقح بإحدى وأربعين كف ؟ وبرد يعض باثنين وأربعين ناب ؟

قفز إلى باب الميكرو كالأرنب الخائف وحشر حسمه النحيف بين الأجساد المتراصة كما يحشر العصفور جسمه في العش الدافئ .

((رووح)) نغم المعاون بصوته الرتيب, أسرع الميكرو ضغظ الباب ظهره وهو ينغلق ضغطا شديدا كبسه كالمخلل في ركام الأجساد اللاهثة المتراصة صعودا وهبوطا ويمنة ويسرة على أنغام الميكرو وانعطافاته . ((لورا يا شباب لورا.. ورا فاضي)) أحس بألم شديد في ظهره لم يبال ازداد الألم شدة وحدة, ولميكترث ثم خطر له خاطر عنيف فكر ((بجاكيته)) ترى هل أصابه الباب غرق جزع وهلع يخيل إليه أنه سمع صوت تخزق مازالت أصداؤه تصدع صدعيه وتثقبت أذنيه خامره حزن مميت ويأس مقيت, ليس لديه بدلة أخرى غير هذه والاستاذ يجب أن يلبس بدلة لكي يكون استاذ كما ينبغي ((لورا يا شباب . اعملوا معروف لورا)) جاهدت يداه وكافحتا لتصلا إلى جيوبه وبعد صبر ومصابرة تكلل جهادهما بالنصر المبين لقد وصلتا إلى الجيوب . أخرج قطعا نقدية نقد المعاون بعضهما ولت يستطع أن يرجع الباقي إلى الجيوب فأطبق عليها بيمناه إطباق البخيل وتمسك بيسراه ينتوء من جسم الميكرو تمسك الفريق . ((يا شباب لورا)) أحس بجاكيته يتألم كأنه منسوج من أعصابه المنهارة ((يا شباب يا محترمين عم بنقول لورا عم نحكي عربي)) أحس بجاكيته ينزف كأن بين سداه ولحمته أوردة وشرايين يتدفق فيها الدم غزيرا مدرارا ((وطوا وسكن وطوا وسكن.. الشرطة)) امتثل الجميع للأمر وضع هو أيضا رأسه بين الرؤوس وقال ((يا قطاع الروس)) وبعد أن سمح للركاب برفع الرأس أنفذ الأستاذ نظره خلال الزجاج المغبش وصرخ :((عندك عندك اعمل معروف)) كانت صرخة في واد ظل الميكرو يسابق الريح وينهب الدرب . نسي ألمه وجاكيته وكل شيء صرخ بلجاجة ((على مهلك يا محترم عندك يا محترم)) كانت الصرخة همسة في طاحون الميكرو سادرا في غيه لا يسمع ولا يفقه تعالت أصوات متدافعة من هنا وهناك ((هوب هوب على مهلك هوب)) تمهل الميكرو خف عجيجه وضجيجه, بدأ الأستاذ يقتلع جسده بالتقسيط قطعة قطعة من بين الأجساد المتراصة في الميكرو كالسردين في علب السدرين ((يا الله عجل. عجل يا أخونا)) تعالى صوت المعاون .

وصل إلى حافة الباب المفتوح, الميكرو مازال يركض ((يا الله انزل)) ألقى بنفسه إلى الرض بالطريقة الغنية التي تدرب عليها ولكنه مع ذلك وجديديه ورجليه تنفرسان في الطين ودفتر التحضير يهرب إلى مسافة بعيدة انتصب فورا كالأشجار التي تنزف واقفة تناول الدفتر مسح الطين عن حوافيه بحنان كما تمسح الأم دموع طفلها الحبيب. التفت.. أوف لقد ابتعد به الميكرو عن مفرق الضيعة بعيدا رجع القهقهرى قدماه تسابقان الشهيق والزفير وصل إلى المفرق نظر في ساعته إنها السابعة والنصف تمام الجرس سيقرع في الثامنة . سيصل في الموعد المحدد أمامه نصف ساعة من سير يقطع أنفاس الرجل ((ويلعن أنفاس)) نعل الرجل . أمامه طريق طويل يعلو ويهبط كالجرذان ويتمطى ويتلوى كالثعبان . المطر ينهمر وابلا مدرارا الريح تعصف والرعد يقصف . فتح المظلة و(يا الله)عد السير فسالت برجلي الأستاذ الأباطح.. (يا الله) المشي عند الصبح رياضة مفيدة نصف ساعة هرولة من المفرق إلى المدرسة وساعة هرولة من البيت إلى المفرق يا سلام كل يوم على هذا المنوال جسمك يصير حديد . وامتطاء صهوة الميكرو ((ع الواقف)). أنسيت ؟ أليست رياضة

؟ قال : (علموا أبناءكم الرماية وركوب الخيل). كرم الله وجهه . لو كان الميكرو موجودا في زمانه لكان قال (علموا أبناءكم الرماية وركوب الميكرو (ع الواقف)) إيه والقفز من الميكرو وهو طائر ؟ أليس رياضة ؟ إنه أصعب من القفز بالمظلة من الطائرة وهي طائرة ؟ إني منذ الخامسة صباحا وحتى الثامنة أمشي وأركب كل يوم أمارس الرياضة وفوق هذا فأنا أنام باكرا لا أكثر من التاسعة مساء واستيقظ باكرا لا أكثر من الرابعة والنصف والمثل يقول : (نام بكير وفيق بكير... وشوف الصحة كيف بتصير) وبعد هذا كله (لابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر) ولابد أن أوفر خلال سنة أو سنتين مبلغ خمسة آلاف ليرة لا بأس لنشد الحزام . وعند ذلك أبيع هيكتار الأرض في الضيعة والبيت فيصبح لدي خمسة عشر أو عشرين ألف ليرة فأسجل على بيت في المدينة وأدبر نقلي إليها وسيتاح لي هناك دروس خصوصية فنعيش أنا والمرأة والطفل ونومي أقساط البيت وسيتاح لي أيضا أن أسجل (دراسات عليا) (وما بعد الضيق إلا الفرج) والراديو يغني دائما (ويروح الجرح ويجي الفرح) يجب أن نتفاءل بالخير لنجده وأن نحلم بالعسادة دائما . صحيح القول : (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) ولكن ((ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل)) كل ظرف في الحياة مهما صعب يؤول إلى خيرنا إذا أحسنا التعامل معه وأجدنا استغلاله يروح متفائلة مقبلة على الحياة غير آبهة بالمصاعب وكما يقولون : (لا تستطيع أن تجني العسل إن لم تلسعك أبر النمل) فلننتظر إلى القسم الملآن من الكأس ولنغض الطرف عن القسم الفارغ ولننظر إلى الجانب المشرق من الحياة ولنضرب صفحا عن الجانب المظلم .

بهذه الفلسفة البسيطة كان الاتساذ عبد القادر الراضي قادرا على تجشم مصاعب الحياة وراضيا بها كل الرضى لقد كان الطريق من البيت إلى المدرسة يأخذ من وقته لا أقل من ثلاث ساعات ومثلها طريق العودة فيصبح مجموع ساعات العمل اليومي أكثر من أحد عشر ساعة أن فترة الدوام لا تزيد على الخمس ساعات وكان الأستاذ عبد القادر الراضي – كما قلنا – قادرا راضيا حتى جاء يوم تضعضعت فيه قدرته وتزعزع رضاه .

قبل أن تحدثك عن ذلك اليوم تقضي المروءة علينا أن نقول كلمة: إنه لأمر طيب أن يقطف قاطف ثمرة طيبة من شجرة طيبة ولكنه أمر أمر من المر أن يقتطف الموت إنسانا طيبا من الحياة ((الأستاذ عبد القادر الراضي إنسان درويش طيب القلب وأستاذ قدير)) هذا ما يقوله عنه كل من اتصل به عندما يذكر اسمه في حضرته أما عن قدرته التعليمية فلا تظهر منها هيئة المتواضعة وقامته المنحنية المتمسكنة كثيرا أو قليلا .

أما عن الطيبة فحدث ولا حرج إنه يكفيك أن تنظر إليه ولو نظرة خاطفة تؤمن وتصدق أن الطيبة شيء مادي مادي تماما سائل حلو بلون الندى يتقطر من عينيه من ملامح وجهه من وجنتيه بل من رأسه حتى أخمصيه من ثيابه من كلامه خاصة عندما تسمعه بقول :((أنا خيو ابن ضيعة فلاح يعني : زي كما خلقتني)) .

تعرفت مع الأستاذ عبد القادر أيام كنا ندرس معا في الجامعة كان يدرس الرياضيات وكنت أدرس الأدب العربي سحرني فيه خلتان قلما تتحدان في شخصي ومع ذلك فقد كانتا شخصه كل شخصه : بساطة قلب متناهية وذكاء عقل متوقد ((خارق بسيط يفوق في بساطته النساك المتوحدين وذكي يبز بذكائه آنشتاين وأفلاطون

كان قد وقر في قلبي واستقر في عقلي ما يشبه العقيدة الدينية بأنه سيكون ذات يوم شأن عظيم لقد كان يبزني في كل شيء وحتى في السن فقد كان يكبرني سنة أو سنتين ومع ذلك لم يكن يخاطبني إلا بعبارة ((أستاذي الكريم)) وعندما كان يسألني سؤالا مدرسيا بسيطا في اللغة أو الأدب يستمع إلي كطفل صغير في حضرة الزمخشري أو سيبويه .

التقيت به منذ عام سألته عن الصحة والحال فقال : ((أخيرا تزوجنا عقبالك ولدي طفل و.. والثاني..)) توقف عن الكلام فقلت :((والثاني ضمير مستتر)) فانتفض ضاحكا . أضفت :((تقديره هو أم هي ؟)) فأغرق في الضحك وأغرب

وأجاب وكلماته تتهاوى حر بي في عاصفة من الضحك كما تتهاوى حبات البرد على الأرض في عاصفة من الريح :((والله.. يا خيو انتو, جماعة الأدب العربي شغلتكن شغلة ما حدا يطلع له ممكن))

والآن نقص عليك قصة من أحسن القصص نقص عليك كيف تزتزعت قدرة الأستاذ عبد القادر الراضي وكيف تضعضع رضاه وكيف سقط قوامه واختل نظامه لقد حدث في يوم من الأيام مالم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال بشر)) أجل لقد قام شرطة المرور بتطبيق نظام المرور ماذا حدث في الدنيا؟ ذلك علمه عند علام الغيوب . المهم تشددت شرطة المرور في نظام السير فاختل سير حياة الأستاذ ولابد للنظام من ضحايا كما يقولون فكان أستاذنا ضحية النظام لقد منع الشرطة الركوب ((ع الواقف)) فلم يعد الميكرو يقف له لأن سيارة الشرطة تقف له بالمرصاد على بعد خمسة كيلو مترات من المفرق الذي ينتظر فيه صاحبنا العزيز وعرف بعد ذلك أن الميكرو يحشو الركاب (ع الواقف) بعد أن يتجاوز سيارة الشرطة بمسافة قصيرة جدا فبدأ يسير هذه الكيلومترات الخمسة الإضافية ويتجاوز سيارة الشرطة حيث يستقبله الميكرو ويقله إلى المفرق الآخر . ولكن المشكلة كانت عند العودة فإن الميكرو لا يقف هذه المرة ينتظر الثاني يأتي يشير إليه لا يقف هو الآخر . الثالث لا يقف الرابع الخامس العاشر... عرف بعد ذلك أن الميكرو لا يقله ((ع الواقف)) عند العودة لأنه مضطر عندها أن يمر بركابه على سيارة الشرطة . ومع ذلك استمر يجرب الانتظار كل يوم إلى حلول الظلام حيث يضطر أن يستقل تكسي إلى مفرق ضيعته وينقدها أجرة تربو على نصف راتبه اليومي استمر الحال على هذا المنوال أياما أغرب من كوابيس المنام في أحد الأيام وقف على المفرق ينتظر كالعادة تكسي أجرة تقله إلى مفرق ضيعته استند إلى حائط بيت مهجور على حافة الطريق كان قلبه يحترق وهو يفكر في الأجرة الظالمة التي يدفعها . نصف راتبه اليومي ثمرة تعب مميت يستمر أكثر من أحد عشر ساعة تأخذ التكسي نصفه في اقل من عشر دقائق . أهله فقراء زوجته ابنه يحتاجان إلى خبز وحليب وإلى ثوب كل سنة فما الحل ؟ صدغاه ينتغضان . ما الحل ؟ سمع صوت ميكرو قادم . هز صوته في دمه اهتز بدنه طبل عظيم يقرع في قلبه يحطم ضلوع صدره يجب عليه أن يوقف الميكرو بأي وسيلة . الميكرو يجب أن يقف يجب أن يقف مهما بلغ الثمن كان الطريق ينعطف قليلا عند المفرق وكان الحائط الذي يستند إليه لا يسمح برؤية أكثر من بضعة أمتار من امتداد الطريق تقد إلى وسط الطريق ليشاهد الميكرو ...ليقف أمامه ليوقفه... مهما بلغ الثمن

تقدم بعزيمة يضرمها كل ما في قلبه من حرقة أعمى دخانها عينيه وأصم أوارها أذنيه . كان الميكرو قد وصل وكان ..الأستاذ قد وصل كلاهما وصلا.. الميكرو والأستاذ

الميكرو وصل إلى حيث وصل الأستاذ والأستاذ إلى حيث وصل الميكرو كلاهما وصلا إلى حيث وصل الآخر تماما ..تماما إلى حيث وصل وكان ما كان

كان ما يعجز عن خط تسطيره القلم ويخرس اللسان... عندما سمعت بالحادث كان قد مضى عليه أكثر من عشرة أيام ذهبت فورا إلى ضيعته لأعزي أمه زوجته أهله دخلت تحت سقفهم الوطيء بين الحيطان الكالحة المتقاربة كقلبي المنقبض تكلمت كلاما خاليا من المعنى خجلت من كلامي ثم جلست ساكنا وخجلت من سكوتي أيضا خفف حرجي قدوم ساعي البريد برسالة كلفت بقرائتها.. إنها من مديرية التربية لاشك أنها رسالة تعزية وفضضت الظرف ورقة صغيرة مطبوعة على الآلة الكاتبة ((الأستاذ عبد القادر الراضي عليك الالتحاق بمركز عملك في مدرسة (ج) وإلا فستعتبر مستقيلا وتلاحق حسب الإجراءات القانونية))

تراقصت الكلمات السوداء أمام عيني ذالت في بياض الورقة أصبحت رمادية ملأ الرماد عيني تزاحمت أصوات منغمة في . أذني : الله حي... الله حي... الله حي... لابد أن حلقة ذكر كانت تقام في القرية